http://dx.doi.org/10.18778/8220-219-9.20

Moussa Fatahine

الآليات الدينية و الفكرية في الجزائر ودورها من تثبيت المرجعية الدينية الوطنية إلى كبح السوق الدينية

The Role of Religious and Intellectual Mechanisms in Algeria in Establishing the National Religious References to Restrain the Religious Market

مقدمة

عرف العالم العربي في نهاية القرن العشرين و بداية الألفية الثالثة موجة اضطرابات من العنف المركّب ، عصفت بجغرافيته و نظمه السياسية تحت آليات العنف و التطرف و الارهاب . و الأخطر الذي بات يطفو على مجال كل دولة أسلامية ، هو انتشار ظاهرة التحوّلات الدينية الذي ساعد عليه سواد العالم الافتراضي الرقمي ، و انتشار ثقافة الحرية اللبيرالية و الجزائر واحدة من هذه الأقطار التي تجرعت مرارة الارهاب و التطرف بجميع أشكاله ، و مازالت تجابه بعضا من بقاياه في شكل مذهبي و أحيانا طائفي منبعث من سوق دينية دخيلة قصد الوشاية و زرع الشكوك و ضرب الرموز و تسجيل الحضور.

و في ظل هذه الوشايات التي باتت تهدد الاستقرار بتأخير الحوار المؤسس ،و زرع الشكوك و اللعب على ورقة الأقليات .عززت الجزائر خطابها الديني بآليات فكرية علمية من شأنه استعادة المرجعية الدينية و الوطنية لغرسه أكثر و تحيينه بعيدا عن التعصّب و التضخّيم . لهذا تجدني في هذه الورقة البحثية أستشكل عن آليات تعرية و رفع اللثام عن ما تدفع به سوق الأزمات في ساحات العالم العربي عامة و الجزائر خاصة ؟ تحت غطاء ظاهرة التحولات الدينية و اتساع قاعدة اتباعها .لهذا بات من الواجب تبيان تهافت حجاج هذه التحولات الدينية في الساحات التي تغذت على ألأصول المرجعية الحقيقية كالخطاب المسجدي في الجزائر و تجلياته في المنظومات الاجتماعية بصورة تحديثية جديدة يسدّ الذرائع ، و يفتح أبواب التعايش و التسامح و الحرية.

فوضى الفتوى و تداعياتها في السوق الدينية

لا شك في أنّ العولمة قلّصت من الحدود الجغرافية و اختزلت الكون بما فيه في نظام الرقمنة بفعل الآليات الاعلامية المذهلة التي يعرفها الانسان المعاصر بدرجات متفاوتة بين الشعوب . على هذا الأساس صارت الحياة مدانة لهذا المجال بسبب استهلاكها إلى حدّ الإدمان و التقديس. و حلول الإفتراضي محلّ الواقعي.

ففي ظل هذا التطور المتسارع لوسائل الإعلام و التواصل الإجتماعي تزايدت الاستعلامات بالعالم العربي ، و بدون شكّ احتضنت أقوى خطاب فيه و هو الخطاب الديني الذي يتضمّن الأحكام الشرعية و الفتاوي التي تقولبت في وسائل جديدة للاتصال و الحفظ و للإعلام لم تكن متوفّرة عند الأولين .كالهاتف النقال و الشبكة العنكبوتية العالمية، و عديد من الفضائيات المسموعة و المرئية تحت أقمار صناعية جد متطورة و دقيقة . مما لزم عنه ظهور الفقيه الفضائي تحت غطاء ما يسمّى بالانفتاح الإعلامي ؛ كمحاولة أولى لفصل الظاهرة الدينية عن إطارها الثقافي الأصيل . بإمكانية انتقال الأفكار و الثقافات خارج الإطار الإقليمي«. [1] و لما كانت المستجدات و النوازل الواقعة على الناس تتطلب الأحكام الشرعية و الافتاء ، و تزامنت مع كثرة وسائل الاعلام التي أقحمت بدورها في نقل المعلومات و الأخبار ، فما لبث أن صار الكثير من المسلمين يتطلعون إلى الفتاوي عبر هذه الوسائل التكنولوجية العصرية فاستجاب كثير من المستفتين من علماء و غيرهم إلى إستفهامات الناس حول مسائل الدين و الحياة عبر الأثير سواء بالصوت

[1]. أوليفييه روا ، الجهل المقدس ، زمن دين بلا ثقافة ، ترجمة صلاح الأشمر ، دار الثقافة ، دار الساقي 2012، ص 20

فقط أو بالصوت و الصورة .و لعلّ هذا التحوّل يرجع إلى عدّة أسباب نختزلها فيما يلي : ارتباط المتدينين بوسائل تكنولوجيا الإعلام إلى حد الإدمان ، في البحث عن الاستفسارات و الفتاوي . ثانيا : قلّ الجلوس للدروس المسجدية بسبب تعقد الحياة الاجتماعية و ضيق الوقت . ثالثا: تعود الناس على السرعة و السهولة في الحصول على الاغراض . رابعا : تكاثر البرامج الدينية التي اصبحت تغطي إعلام البيوت و الجيوب و انتشار مواقع الإفتاء على صفحات الجرائد ، و الفضاء الأزرق ... والمطويات المروّجة للطائفية و المذهبية التي تبعث على الكراهية و نكران الآخر

هذا، فمن البيّن أنّ تؤثر هذه الأساليب و الوسائل الجديدة على الفتوى[2]و نظامها ، بعد ما كانت ، تصدر عن فيه و أفعال النبي محمد – صلى الله عليه و سلّم – صاحب الشريعة و البرهان ، وبما جاء في النصوص القرآنية ، ثمّ انتقلت الفتوى إلى ورثة الأنبياء من العلماء المخلصين بعدما تلقوها عن الصحابة بأمان و إتقان ، في المجالس و المساجد و دور القضاء ، فرادى و جماعات ، ثمّ انتقلت إلى التأليف و النشر و التوزيع . لكن تكنولوجيا الاعلام و الاتصال الحديثة غيّرت الأسلوب و أحدثت جدلا خطيرا بين الأصيل و المغشوش من الخطاب الذي حمل كثيرا مما يتناقض مع الأسس و المبادئ التي يقوم عليها الدين الإسلامي الحقيقي ، الدين الرسمي النقي الذي يتدين به الجزائريون.

لا يختلف اثنان حول مصدر فوضى الخطاب الديني اليوم ، و آليات نشر الرسائل الدينية بمختلف مضامينها المعرفية و القيمية بعيدا عن كل مراقبة رسمية تحت غطاء الإسلام السياسي الذي فتح أبوابا إذ أصبح يطرح مسائل خلافية دنيوية و محاولت بنائها على منظومة مفاهيمية جديدة تمس بالعقيدة و الدين في جوهره. و يعتلي هذه المنابر المسجدية و الفضائية و الصحفية من يجهل المصادر و شروط الفتوى بدافع حب الظهور ، و تنفيذ مخططات ، أو بدافع الترويج للسوق الدينية التي تروج لأفراد بعرض سلعتهم ، و تنزل الكساد على آخرين ، تقدّم للمتفيقهين و تسدل الستار على العلماء الأكفاء الأفذاذ لهذا، أضحى لا يطفوا على الساحة الإعلامية و الإجتماعية الذين يقتاتون من الاختلاف ، دون الإكتراث بعواقب الأمور عند التقصير في شروط و ضوابط الفتوى الشرعية التي يصادق عليها المجلس العلمي كما هو الحال في المؤسسات الدينية في الجزائر . و هذا الذي تزامن مع انتشار الليبرالية الجديدة بأسواقها التي تروّج فيها الأفكار الدينية ،باسم الانفتاح الثقافي و الاعلام الدّيني المرصود الذي مكّن من وجود أتباع لطوائف دينية و مذهبية تقدم نفسها على شكل حركات دينية تجديدية يشبه قانون العرض و الطلب المسيّر للسوق الرأسمالية التي تتطعّم من نار الفتن التي تجعل للإطفاء و الإخماد ثمنا ؛ طبقا لما « للاعتقادات الدينية و الالتزامات و الأصول دور هام في تشكيل الهويات العرقية، و المحافظة عليه بما توفره من حوافز إيديولوجية ووسائل توظّف في تأجيج الصراعات العرقية« [3]و قد تكون أحيانا « حرب ثقافية»[4]من أشهر ما راج في هذه السوق نجد الفتاوي المتضاربة و حضور التيارات و الطوائف الدينية الوافدة من المشرق و من الغرب التي تحاول أن تجد أصدقاءا أتباعا خارج المحيط الجغرافي الذي نشأت فيه ، و خارج المحيط الثقافي الأصيل ، تشتغل على أنتاج (بضاعة) قيم دينية تسوّقها وكالات بأقل التكاليف هدفها الأول و الأساس ؛ هو تحقيق الاستعطاف الديني عن طريق آليات مؤثرة تدعمها الانتروبولوجيا و سيكولوجية التأثير في الشعوب ، من بينها (الشيعة) و الأحمدية ، و الإنجيلية ، و الوهابية الجديدة .. فإذا كان المفتي هو المتمكّن من معرفة أحكام الوقائع شرعا بالدليل مع معرفته لأكثر الفقه»[5] وقد أجمع الفقهاء على شروط صارمة لابد أن تتوفّر في المفتي المجتهد أذكر منها: ان يكون عالما بالأحكام الشرعية و أصولها و فروعها ، و عالما بكتاب الله و بسنة محمد صلى الله عليه و سلّم،و ان يعلم بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها ، و المجمع عليها،و لا يجوز الإخلال بشيئ منه»[6]، فضلا عن معرفة أحوال الناس و أعرافهم و أوضاع العصر و مستجداته.

[2] .الفتوى بمعناها العام هي الإخبار بحكم الله تَعَالَى لمعرفته بدليله، فهي تتطلب بهذا المفهوم حصول علم بأحكام الفقه الإسلامي أصلاً وفرعاً خلافاً ومذهباً، أي بمسائل الفقه، وقواعده وفروعه، وبما فيها من الخلاف، إضافة إلى اجتهاد وورع لدى المفتي» انظر ، أبو عبد الله الحراني الحنبلي، صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، تحقيق :المحقق :محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت،ط٣، 1397] ه]، ص4

[3] .روناي ستارك ، دارن أ ، شركات ، السوق الدينية ، ترجمة عز الدين عناية ، دار صفحات للدراسات و النشر، دمشق، سوريا 2012

[4] J.D. Hunter, *Culture Wars*, New York 1991.

[5] .تقي الدين (ابن الصلاح) أدب المفتي و المستفتي، تحقيق عبد الله عبد القادر ، ط١، ج١، 2002، مكتبة العلوم، المدينة المنورة ،ص 24

[6] .الخطيب البغدادي ، الفقيه و المتفقه، تحقيق عادا بن يوسف العزازي، ط1،1996، دار ابن الجوزي، ص333

لكن المستقري لواقع الإفتاء الرقمي أو الفضائي ، السواد الأعظم فيه، لا يتوفر على الشروط، و يشتغلون على الخلافات الفقيهية و الإسلام السياسي، فيلبسون الخلافات الفقهية للعقيدة ،» لأنّ الفتوى يمكن أن تكون عامل اضطراب و فوضى عندما تكون توجهات المفتي أو المؤسسة الإفتائية متعارضة مع توجهات الدولة و الرأي العام لمواطنيها «[7] لهذا صار يغلب عليها الإفراط في التيسير و المبالغة في مسايرة الواقع فيقع الكثير في مصيبة إخضاع النصوص للواقع المنحرف. فيحصل للمستفتي أن يحصل على فتاوي متعددة لمسألة واحدة ربما في يوم واحد، و في تقديري هذا ناتج عن الخلط بين التيسير و التساهل . و التلفيق بين المذاهب (تتبع الرخص عن هوى) دون التزام شروطه ، جريا وراء الاستهانة بالدليل و الترجيح، و تتبع الرخص ، و السطو على الفتاوي الشاذة، و هذا ليس محمود شرعا ، و فيه ما يربك المسلمين و ما يضر بوحدتهم و تماسكهم ، و هذا ليس بريئا البتة إذا سحبناه على ما يحدث في مجال الاسلام السياسي المصطنع كمنصّة لانطلاق التشويش و زرع البلبلة و تعنيف العامة بعامل العاطفة الدينية السلبية. نذكر بعضا من تلك الفتاوي الشاذة التي يراد منها التشويش و التفريق بين المسلمين : جواز سرقة أموال الدول غير المسلمة ، إهدار دم المعارض ، نكاح الجهاد،[8] إرضاع الكبير ، تفخيذ الصغير . و قول الاحمدية بتناسخ الأرواح ، و أن الله يصوم ، النبوة لم تختم ، ...أصحاب الدين الجديد ، اباحية لحم الخنزير ...[9] فضلا عن فتاوي نشر فتاوي تبيح العنف و الضغينة لليهود و للمسيحيين لتعميق العداوة وتوسيع الصراع للاستثمار في سوقه كسلعة رابحة . أحصى بعض الباحثين حوالي 200قناة فضائية تعبث بالفتوى و تنشط السوق الدينية لغرض صناعة الجدل في الشارع و التشكيك في الرموز و الإعلام، و تغيير في العلاقات بين الناس و أساليب تواصلهم و دلالات خطاباتهم عملا بتشكيل قناعات الناس و توجيهها حسب مقتضى السوق. أين تكون الإفتاء الواحد سلعة لجميع الناس في كل الأقطار و الأجناس و البيئات المختلفة فهل يؤدي هذا الى الترابط و التفاهم؟ أم يبسط مسلك التكفير و التعنيف و التشكيك؟

المرجعية الدينية في الجزائر

لا يخفى على كل متبصّر أنّ من معالم الدين الإسلامي ، التسامح و المحافظة على حرية الإنسان و الدفاع عن كرامته بالعدل و الإحسان و الترفع عن كل العنف و العرقية باعتماد الحوار الجاد المبني على مقدمات تطعمها نصوص نقلية و أحكام اجتهادية نابعة من عمق الإسلام الصحيح . و نتيجة لفراغ في المؤسسات الدينية الجزائرية حتى التسعينيات و تفاقم الصراع بين الدين الإسلامي الرسمي الصحيح و التيارات الدخيلة المصَدَّرة من الغرب و المشرق بدعوى دخول التيارات الاسلامية غمار السياسة .كانت البداية مع ما عرفته الجزائر من موجة تطرف و عنف شرسة تغذيها الطائفية و المذهبية تحت غطاء الاسلام السياسي غُيِّبت فيها الوسطية والإعتدال و التيسير بتجاوز الضوابط الشرعية ...و نتيجة لهذه الوضعية المزرية التي غذّت التفريق و كرّست الانسداد . استشعرت قرائح علماء الجزائر و حكماؤها ، فشخصوا المرض و عقدوا العزم على تطبيبه و سدّ الذرائع أمام تجار الأزمات و أعداء السلام و ذلك بالاستثمار في المرجعية الدينية و الوطنية لتدعيم الأرضية و صونها لحماية الجزائر و تعزيز التنمية فيها بطريقة علمية حضارية ، فما هي هذه المرجعية التي يتأسس عليها الخطاب في الجزائر؟

في البداية أريد أن أنبّه الدارسين إلى أنّه لا يمكن الفصل بين المرجعية الدينية و المرجعية الوطنية في الجزائر ، و أحاول أن أقدّم مسحة حول المرجعية الفكرية و المرجعية المؤسساتية في الجزائر ، مبتدئا بضبط تصور المرجعية التي نقصد بها : الأصول الشرعية و المشارب التي تستقى منها الأحكام و الأدلة ، و تعني أيضا، « كل الأسس المعتمدة في فهم الدين و تطبيقه في مجتمع ما...أو هو الأصول الشرعية المختارة في فهم الدين و تطبيقه ، و الهيئات العلمية المخبرة بأحكامها «[10] و تأصيلا للمصطلح فقد ورد في القرآن باسم (أولى الأمر) في قوله تعالى : « و لو ردّوه إلى الرسول و إلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» (سورة النساء، آية83) ، قد فهم العلماء من دلاله (أولى الأمر) بأصحاب الحل و العقد ، فـي الفقه و في الأصول و في السياسة و في القيادة العسكرية ، و باختصار تعني أهل الخبرة و الاختصاص الذين أشار إليهم القرآن الكريم في قوله : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) سورة الأنبياء الآية 43.

[7]. زهية جويرو، الفتوى بحكمها العرض و الطلب، http://www.islamist movements.com/41237، 2017/10/14

[8]. محمد الحمامصي ، الفتاوي الشاذة تجتاح العالم الاسلامي، https://alarab.co.uk/ ، 2013/10/03

[9]. الأحمدية افكارها و عقائدها ، https://ar.islamway.net/article/1830

[10] Http://laidbenzetta.blogspot.com/2017/09/blog-post_11.html, retrieved 10.09.2019.

و بهذا تكون النوازل و المستجدات و مسايرة الواقع من صميم أهداف الاجتهاد على أرضية صلبة متينة . و يمكن يلخيص هذه المرجعية في جاء في مدونة (عبد الواحد بن عاشر الفاسي المغربي ت1040هجري):

في عقد الأشعري و فقه مالك ...و طريقة الجنيد السالك.

و الذي يعني أنّ الجزائر بلد عربي مسلم، سني ، عرفت منذ الفتح الإسلامي دخول اختارت المذهب الأشعري في العقيدة، و المذهب المالكي في الفقه، وطريق الجنيد (أبي القاسم الجنيد الخزاز القواريري ت 297 هجري) في التربية الروحية (التصوف) و السلوك.

أ – المرجعية العقيدية الأشعرية في الجزائر:

تمثّل الأشعرية مذهب أهل السنّة و الجماعة ، اشتهر في العراق حوالي سنة 990 نسبة إلى مؤسسه (أبا الحسن الأشعري 266ه – 324هج) صاحب (مقالات الاسلاميين) و تلامذته (أو بكر الباقلاني 1013هج) صاحب شرح الإبانة و إمام الحرمين (أبو المعالي الجويني 1085هج)صاحب الشامل في أصول الدين ، و من بعدهم (المهدي بن تومرت 474هج – 1111هج)[11].و العقيدة الأشعرية دخلت إلى المغرب الإسلامي حوالي القرن الرابع هجري، عن طريق (ابراهيم الزبيدي القلانسي ت359هج) في القيروان الذي اعتمدت كتبه في التعليم و الخطابة الدينية في المدارس و المساجد و مازالت إلى يومنا هذا تشكل آراؤه و 524هج) ، و من أبرز الذين نشروا المذهب الأشعري في الجزائر نجد العلاّمة محمد بن يوسف السنوسي التلمساني ت 895هج)[12] و مازالت إلى يومنا هذا تشكل آراؤه و كتبه أهم مراجع الخطاب العقيدي الديني في الجزائر. و من أهم الأصول المشتركة بين ممثلي المذهب الاشعري نجد : الله موجود و أزلي و العالم حادث ، إثبات الصفات ، القرآن كلام الله غير مخلوق ، استقرار القانون العقلي عند تعارض العقل و النقل ، القول بالوسطية و الاعتدال ، و التأويل ، و نبذ غلو التكفير ، و بالتالي « ظهرت الأشعرية بفكر جديد أول سماته الإعتدال و التوسّط، و ذلك بعدما لقي الفكر ما لقي من محن و فتن بسبب هذا الاستقطاب.»[13] ;و يمكن التعرف على الوسطية من خلال آراء الاشعرية في الخلق و في الكسب و في السياسة و غيرها . وقد استمرّت آراء الأشعرية مع كثير من العلماء يتوارثون و يجددون كلما حلّت أزمة . و حسبنا نكتفي (بمحمد السنوسي) الذي « كانت حياته غنية و هي تعتبر ظاهرة هامة من ظواهر القرن التاسع هجري... ألّف في العقائد و هو ابن تسع عشرة سنة..تتلمذ على القلصادي»[14] يحتاج عرض انتاجه إلى بحث منفصل . كما نجد العلامة(أحمد بن عبد الله لزواوي 1398–1479م) الذي أسس للعقيدة الأشعرية في القرن 15م بكتاب هام وسمه ب(المنظومة الجزائرية في العقائد الاسلامية) لخّصها و نظمها لتسهيل التعليم في 355بيت.و شرحها كثير من العلماء و صارت متنا يؤسس لبرنامج تكويني في الجزائر. و قد شرحها الإمام السنوسي فيما بعد . و هذه العقيدة هي التي سادت مؤسسات و بيوت الجزائريين في عهد الأتراك و بقيت صامدة خلال الإحتلال الفرنسي و بعد الإستقلال ، فصارت السند الذي يؤسس للآراء الاعتقادية في الدولة الجزائرية المعاصرة و مازال موجودا إلى يومنا هذا ، (لأنّه كانت مؤلفات محمد بن يوسف السنوسي في العقائد هي المصدر المحلي لعلم الكلام . و قد اصطبغت هذه المؤلفات بالصبغة الصوفية) [15] . وقد أشارت وزارة الشؤون الدينية على لسان وزيرها في مناسبات عدة و على موقعها التواصلي إلى ضرورة التمسك بالعقيدة الأشعرية و تجنّب الأفكار الدخيلة التي تحمل العنف و التكفير و التعصب عشية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من تلمسان يوم 2017/11/02، ومن برج بوعريريج في خطاب يوم 25ماي2016»[16] حثّ على العودة إلى علماء الجزائر و التمسك بالمرجعية ذات أصول مالكية و أشعرية ، و هذا الذي نجده

[11] الزركلي ، الأعلام ج5، ص69، كشف الطنون، ج1، ص442.

[12] محمد بن يوسف السنوسي التلمساني، أحد أعلام الفقه و الكلام الجزائريين، من أئمة السنة و الجماعة،من أهم مؤلفاته «أمّ البراهين» أو العقيدة الصغرى و كتاب شرح السنوسية الكبرى الذي ألقى فيه آليات النهوض بعلم الكلام الأشعري .انظر محمد لمين بلغيث، مركز أبي الحسن الأشعري http://achaari.ma/Article.aspx?C=5819

[13] Abdul Wahab Jan al Azhari, *Imam Ash'ari's Moderate Theological Approach*, "Journal of Islamic & Religious Studies" 2017, Vol. 2, Issue 2.

[14] أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج١، دار الغرب الجزائري، ط١، ص 95 و96.

[15] أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع نفسه ص92.

[16] Http://aljazairalyoum.com/tag, retrieved 10.09.2019.

يطبع مراسيم و مخرجات الخطاب الديني في المؤسسات الجزائرية ، و هو غذاء سليم لنجاح مشروع المصالحة الوطنية و سد الذرائع أمام المعنّفين و المتطرفين و تجفيف المنابع الفكرية للارهاب.

ب – المذهب المالكي مرجعية فقهية في الجزائر:

تشير المصادر التاريخية إلى أن المذهب الفقهي المالكي إلى الجزائر أدخله (الإمام سحنون القيرواني ت264هج) ، و استقرّ المذهب في بلاد المغرب على يدّ (المعزّ بن باديس الخليفة الزناتي ت453هج) الذي كان له دور كبير في انتشاره و بسطه .وهذا الذي أورده الباحث أحمد تيمور باشا في كتابه المذاهب الفقهية الأربعة و انتشارها فقال : (كان الغالب على أهل إفريقيا السنن ثم غلب المذهب الحنفي، و لمّا تولى على إفريقيا المعزّ بن باديس سنة 407هج) حملها اهلها ما ولاها من بلاد المغرب على المذهب المالكي و حسم الخلاف المادي في المذاهب فاستمرت له الغلبة عليها و على سائر بلاد المغرب»[17] و قال مالك بن المرحّل : لا تخالف مالكا في رأيه فعليه جلّ أهل المغرب ... و نفهم من هذا أن علماء الجزائر أخذوا المذهب المالكي من القيروان ،ثم زادوا عليه اجتهادات كثيرة تبيئية للفقه المالكي نذكر من بينهم :

شرح كتاب الموطأ للشيخ أحمد الداوي المسيلي البسكري (ت 402هج) كما شرحه النيخ مروان البوني العنابي (ت440هج) و لكن أشهر الكتب التي تعلّق بها الجزائريون و تبركوا بها نجد كتاب (مختصر الشيخ خليل بن إسحاق) [18] الذي شرحه أحمد بن مرزوق 842في كتاب (المنزع النبيل في شرح مختصر خليل) الذي كان يدرّسه (العلامة عبد الحميد بن باديس) في الجامع الأخضر بقسنطينة ، مع (كتاب متن عبد الواحد بن عاشر) ، و (كتاب رسالة أبي زيد القيرواني) و (كتاب أقرب المسالك) و بهذا يتضح أن جمعية العلماء المسلمين من نشأتها إلى يومنا هذا تعتمد المذهب المالكي.[19] و لقد استمدت القوانين الجزائرية من هذه المصادر و مازالت تجابه النوازل و تعمل على تبيئتها . و هذا ليس تعاطفا أو انتصارا مجانيّا بل يعود ذلك إلى جملة من البواعث أهمها: يتجنب التكفير و ينفتح على المذاهب الفقهية الأخرى و يتقارب معها للتعايش و الانسجام . مذهب يراعي المقاصد و المصالح في الأحكام الشرعية بالاعتماد على (المصالح المرسلة) و (سدّ الذرائع) و بالتالي ، فهو أقرب إلى الوسطية و الاعتدال ، و اقرب إلى التجديد و الانفتاح على الآخر . و أقرب مثال واقعي صادق في هذا القرن ، هو نجاح المصالحة الوطنية و نجاح النقاش بين الطوائف المتطرفة المسلحة و مؤسسات الدولة «[20] في الجزائر ، في الفقه السياسي، و إيجاد الكثير من الحلول الفقهية للحجاج كالإحرام في جدة ، و التنعيم ، و تخريج الزكاة نقدا و غيرها من المستجدات . و يرجع هذا في تقديري إلى التوسيع الذي عرفه المذهب الفقهي المالكي « إذ بلغت أصوله مجملة ستة عشر أصلا ، و مجزأة أربعا و عشرين أصلا « [21] و هذا من شأنه أن يتلاءم مع التجديد و المرونة لاحتضان التديّن الذي صار له تأثير متبادل مع السياسة و الثقافة و الظواهر الاجتماعية الأخرى.

ج – المرجعية السلوكية الصوفية الجنيدية

إنّ الرجول إلى الحمولة التراثية الجزئرية و استقراء الواقع الجزائري يكشفان عن أستقرار التصوف بطرقه المتعدد في المجتمع الجزائري منذ الفتح الإسلامي المبكر، الذي مازالت آثاره و سلوكياته حاضرة في العمق في ربوع الوطن ،و لقد ارتبط التصوف الاسلامي السني، بالقرآن الكريم و سيرة النبي محمد صلى الله عليه و سلّم ،و العامل المشترك بين الطرق الصوفية العالم الاسلامي هي القلب و الكشف و الشهود و المواهب الإلهية (الكرامات) ، و تجلى في ثلاثة وجوه :

- التمسك بالشريع و عدم ترك الضروريات.
- الاستناد إلى الذوق و الشهود القلبي و الروحاني
- مراعاة الاعتدال في الالتزام بالشريعة و طلب الحقيقة .»[22]

---

[17] أحمد تيمور باشا ، المذاهب الفقهية الأربعة و انتشارها عند جمهور المسلمين، ص67.

[18] ابو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ج1، المرجع نفسه، ص68 و ما بعدها.

[19] A. Houcine, "Journal of Scientific Research and Islamic Studies" 2014, No. 7, pp. 25–26.

[20] V. Sakthivel, *Political Islam in Post-Conflict Algeria*, www.hudson.org/research/13934-political-islam-in-post-conflict-algeria, retrieved 10.09.2019.

[21] A. Houcine, *op. cit.*, pp. 25–26.

[22] عبد القادر مداح، التواصل الصوفي بين الطرق الصوفية، في المغرب الأقصى و غرب الجزائر، رسالة دكتوراهفي التاريخ الحديث و المعاصر ، 2017/2016، جامعة بلعباس.ص52

والذي يعنينا أكثر في بحثنا، هو المرجعية الصوفية في الخطاب الديني الجزائري و السلوكات التربوية الروحية ، فهي طرق كثيرة و متشعبة ، بعضها جزائري الأصل (الرحمانية) و (التيجانية 1150 هج) و (القادرية) نسبة إلى محي الدين الكيلاني 1166 في 1078 في فاس و هي الدخيلة من المشرق و (الشاذلية) نسبة الى عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي .1185 من المغرب ، و هذه الطرق تتفرع بدورها إلى طرق أخرى . لهذا تجدني أركّز على ما له علاقة بالمؤسسة الرسمية الدينية في الجزائر و هي (الجنيدية) نسبة إلى إمام التصوف (أبي القاسم الجنيد 221–297هج) الذي نشأ في بغداد من أئمة القوم و سادتهم «[23]....و هو الُعرفت مدرسته بمدرسة السلوك و الرقائق و الأخلاق و هذا المنحى هو الذي اختاره المغاربة في ممارستهم للتصوّف السني» [24] غلبت عليه الاستقامة في العقيدة ، عارف عامل بالسنة النبوية الشريفة و « التصوّف اجتناب كل خلق دنيء ، و استعمال كل خلق سنيّ ، و أن تعمل لله ثمّ لا ترى أنّك عملت» [25] و هذا دعوة إلى الصفاء و ازدراء المكابرة و الغلو و حب الذات . إنّه المنهج التربوي الذي يبني النفوس و يرسم الطريق إلى تقوية الخطاب الديني الانفعالي العاطفي الذي يقوي بدوره الروابط ، و يؤسس للتسامح و التعايش.

المرجعية و المؤسسات الدينية الرسمية بالجزائر:

إنّ معلوم لدى كل باحث أن الدين رابط أساسي بين الناس في المجتمع ،و عامل تنظيمي رئيسي يقوي الراوابط و القيّم و يؤسس لقوى داخلية مادية و روحية ،بالتأثير على مؤسسات إجتماعية فعالّة كالتّربية و الأسرة و المدرسة ... و لمّا تعرّضت الجزائر لأزمات التفكك و التعصب تحركت - فضلا عن المؤسسات السياسية – المؤسسات الدينية لدحض التطرّف و تصحيح ما أفسدته التيارات المغالية المتشددة التي حاولت أن تسيطر على الخطاب الديني لما يحمله من أهمية و خطورة في حياة الجزائريين .فما هي هذه المؤسسات الدينية الرسمية التي تعدّ مرجعا للخطاب في الجزائر المعاصرة ؟

أ – وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف

تعدّ وزارة الشؤون الدينية في الجزائر أقوى ركيزة في بناء الخطاب الجزائري ، تضمن كل ما يتعلّق بالنشاط الديني الإسلامي في الجزائر، تأسست بعد الاستقلال مباشرة ، و تعدّ من أعتق المؤسسة الرسمية ، مهمّتها تسيير كل ما يتعلّق بالشعائر الدينية ، و تصون القيم الروحية و تدفع الخصومات ، و تحفظ مقومات الشخصية الوطنية التي أمر بها الدين ذاته..و قد عرفت تسميات متعددة خلال الحقبة من 1962إلى يومنا هذا ، في 1965 بموجب المرسوم رقم 265–207 سميت وزارة الأوقاف. .و تغيّرت التسمية في 1971 أصبحت وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية بأحكام المرسوم 71- 299، أين جمعت بين التربية و الدين في التكوين و التسيير . و في 1980 ما لبثت أن صارت وزارة الشؤون الدينية و ألحقت مصالح التعليم الأصلي بالتربية ، و بقيت كذلك إلى غاية 2000م ، فأضيفت لها (الأوقاف)[26] ، و هذا يرجع إلى أهمية المجال الوقفي في تنشيط الحياة الاجتماعية ، كما تضمنت التكوين و التعليم القرآني و حفظ التراث و إحيائه . كما عرفت هذه الوزارة هيكلة تظم مديريات مركزية و مديريات فرعية ، تسهر على تنظيم كل ما يتعلّق بالشعائر الدينية إداريا و بيداغوجيا، و قانونيا ، بل حتى إعلاميا ، كتنظيم الندوات و الملتقيات الوطنية و الدولية .تدخل في إطار التوعية الدينية و تعزيز المرجعية و كحاربة كل أساليب التكفير و الغلو و التطرّف و التجارة بالفتوى . و حسبنا أنها أطّرت أكثر من أربعة عشر مؤتمرا دوّليا حول الفقه المالكي بولاية عين الدفلى ، كان آخرها موسوم ب (الإتجاه المقاصدي في المذهب المالكي) يوم 10-11-12-أفريل 2018. من بنوده توظيف الفكر المقاصدي في ترقية القيم والعلاقات الإنسانية وتعزيز الأمن والسلم الدوليين.»[27] في التأصيل و الاجتهاد و المصادر و المقاصد ، اجتمع فيه علماء العالم الإسلامي . فضلا عن مؤتمر بباتنة حول (دور المؤسسة الدينية في تعزيز الأمن الفكري و الانسجام الاجتماعي»[28] و كل هذا يدخل في استراتيجية الوزارة الوصية في محاربة دعاوي التطرف في الزي الرقمي الجديد.

[23] أحمد بن عثمان الذهبي ، سير النبلاء ، مؤسسة الرسالة ط1، 1981، 166/14

[24] اسماعيل راضي، مركز الإمام الجنيد ، http://www.aljounaid.ma/Article. aspx?C=5605.

[25] أبو نصر السراج الطوسي، كتاب اللمّع، تحقيق عبد الحليم محمود، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر 2002، 296.

[26] "Journal Officiel" 2007, No. 38, https://www.joradp.dz/HFR/Index.htm, retrieved 10.09.2019.

[27] http://www.marw.dz/index.php/10-11-12-04-2018, retrieved 11.09.2019.

[28] http://www.marw.dz/index.php/2015-03-24-13-16-07/2015-04-27-14-48.html, retrieved 11.09.2019.

ب – المجلس الإسلامي الأعلى

يعدّ المجلس الإسلامي الأعلى المؤسسة الدينية الثانية في الجزائر ، في بداية تأسيسه سنة 1966 كان تابعا لوزارة الشؤون الدينية حسب المرسوم التنفيذي 66–45، 1966، يقوم بمهمة الاجتهاد في الطوارئ و النوازل و المستجدات و التيارات الجديدة و ما تفرزه من مشاكل تقلق المسلم و تشوش على عقيدته و معيشته. و ظل المجلس على هذا الحال إلى غاية تعدير دستور 1989، أين تم ترقيته إلى مؤسسة تابعة لرئاسة الجمهورية « [29] من أهدافه : جعل الإسلام في مأمن من الحزازات السياسية ، التذكير بمهمة الإسلام العالمية ،و التمسّك بمبادئه الأصيلة ، إذ هي تنسجم مع المكونات الأساسية و الطابع الديمقراطي ، فضلا عن التوجيه الديني و نشر الثقافة الإسلامية من أجل إشعاعها داخل الوطن و خارجه»[30] يتألف هذا المجلس من لجان متعددة : التربية التكوين التوجيه الإرشاد و الإعلام . كان له الفضل في انعقاد الكثير من المؤتمرات و الندوات الوطنية و الدولية ، و امتابعة كل المستجدات ، كالمصرفة الإسلامية و التعامل مع البنوك ، و الهجرة و طوائف التكفير ، و الفتاوي المستوردة .كان آخرها « اتفاقية بين المجلس الإسلامي الأعلى و رابطة العالم الإسلامي لمواجهة التطرف، تمّ التوقيع على اتفاقية مكافحة التطرف ، و مد جسور التعاون العلمي و الثقافي « [31]

ج – المساجد

يُعدّ المسجد المؤسسة الدينية الأولى التي ينطلق منها الخطاب الإسلامي ، إذ تمركزت فيه كل الوظائف التربوية و الاجتماعية و السياسية ، و الاقتصادية و الإعلامية ، تأسس منذ الفتح الإسلامي الأوّل و صار اليوم منتشرا في كل ربوع الوطن الجزائري ، و هو « المكان الذي يتعبّد فيه»[32] و جاء في تعريف في المدونة التشريعية الجزائرية بأن المسجد « هو بيت الله يجتمع فيه المسلمون لأداء صلواتهم و تلاوة القرآن الكريم ، و الاستماع إلى ما ينفعهم في أمور دينهم و دنياهم»[33] الجملة الآخير تدل على كل ما يلزم الإنسان المسلم في مجال التنشئة الاجتماعية و القيم يجدها في المسجد . و المساجد ثلاث أنواع :مساجد أثرية ، مساجد مجلية، و مساجد وطنية .

هذا، و من أهداف المسجد ، إعداد الشخصية المتكاملة للفرد المسلم من جميع الجوانب ، في العقيدة و في العبادة و في الأخلاق، « و جميع علاقاته ، سواء التي تربطه بربه أو بنفسه أو داخل المجتمع الذي يعيش فيه «[34] و بهذا ، يعتبر المسجد منارة العلم و المعرفة و العبادة و التكوين .

و للمسجد وظائف عدّة أهمها : الوظيفة الروحية، الوظيفة التربوية، الاجتماعية و الاقتصادية.. و قد جاء في ذات المرسوم التنفيذي 91–81، الوظيفة الروحية، الوظيفة، الوظيفة التربوية التعليمية كتعليم القرآن و الفقه و أصوله و السيرة النبوية، فضلا عن المسابقات التحفيزية ، و الوظيفة التوجيهية الإصلاحية ...و لقد أردف المشرع إلى هذا؛ تأسيس مؤسسة المسجد لتفعيل رسالته و توحيد الخطاب الديني في مرسوم 91–82. و تدعيمها بمجلس علمي و ثقافي. و من مهام مؤسسة المسجد : ففي المجال العلمي و الثقافي تقوم بتبيان الحكم الشرعي في المسائل الشرعية التي يثيرها الأفراد و المؤسسات و الجماعات ، و العناية بنشر ثقافة الفكر الإسلامي، فو في تحري الأهلة و إحياء المواسم و الأعياد،للحفاظ على وحدة الأمة الدينية . أمّا في المجال الاجتماعي تقوم بالحفاظ على حرمة المسجد و أملاكه ، و ترشيد الحركة الوقفية والاستثمار فيها ، و تساهم في حلّ المشاكل الاجتماعية و مساعدة المحتاجين. و تنقسم مؤسسة المسجد إلى : مجلس علمي ، مجلس البناء و التجهيز ، مجلس التعليم المسجدي،مجلس سبل الخيرات. و عدد المساجد في الجزائر تجاوز000 15مسجد، 450مسجد في العاصمة وحدها.[35]

---

[29] انظر المادة 161، الجريدة الرسمية 12 المؤرخ 1989/11/12.

[30] انظر الجريدة الرسمية رقم04، المؤرخ في 1998/01/24، المتضمنة المرسوم الرئاسي رقم 98-33 ، ص06.

[31] https://www.youm7.com/story/2018/10/1, retrieved 11.09.2019.

[32] ابن منظور ، لسان العرب، المجلد3، دار المعارف القاهرة ص، 1940.

[33] الجريدة الرسمية،العدد61، المرسوم 91-81، مارس 1991.

[34] زعيمي مراد، مؤسسة التنشئة الاجتماعية، ط1، دار قرطبة، 2007، ص112.

[35] https://www.albayan.ae/sports/2006-10-17-1, retrieved 11.09.2019.

د – المدارس القرآنية

تعتبر المدارس القرآنية مدارس دينية رسمية في الجزائر ، تسهر على تلقين الفرد المسلم القرآن الكريم لاستحضاره و رسمه محكما ، و تلقين الطلبة مبادىء عامة لأحكام الشريعة الاسلامية، و لقد نظّمت الدولة هذه المؤسسة الدينية لما لها من أثر في الحفاظ على الهوية العربية الاسلامية بإصدار مرسوم تنفيذي 80-123، في 1980/04/13، ثم تلاها إصدار مرسوم تنفيذي خاص بتنظيم المدارس و سيرها رقم 94-432 في 1994/12/10م ،» [36]صار يتخرج الآلاف كل سنة يحملون كتاب الله و يستظهرونه ، تتجاوز عددها 2360مدرسة .وهذا من شأنه أن يوفر شروط الحفاظ على اللسان العربي الفصيح و يمكّن من إعداد المسلم الذي يملك مقدمات فهم الشريعة الاسلامية الصحيحة.

و – المعاهد التعليمية الدينية في الجزائر:

هي المؤسسات الدينية و الأوقاف الرسمية التي تتولى مهمّة تكوين كل فئات الإطارات الدينية ، بعضها تابع لوزارة الشؤون الدينية ، كتكوين معلمي القرآن الكريم و بعض أصناف الأئمة و المقيمين .و بعضها تابع لوزارة التعليم العالي و البحث العلمي في درجات علمية متفاوتة (ليسانس ماجستير ماستر دكتوراه) لهذا يمكن النظر إلى هذه المؤسسات على قسمين:

القسم الأوّل :المعاهد الاسلامية لتكوين الأئمة:

هي معاهد دينية رسمية أنشأتها الدولة الجزائر مع بداية الاستقلال ، لغرض تكوين ائمة صلوات الخمس، و أئمة خطباء ، و معلمي القرآن الكريم ، و إعادة تكوينهم كلما اقتضت الظروف .و عددها يصل إلى سبعة : المعهد الإسلامي لتكوين الإطارات الدينية بسيدي عقبة بسكرة ، عين الصالح ، تلاغمة ميلة ، عزازقة تيزيوزو، غيليزان ، سعيدة .و معهدا للقراءات بالجزائر العاصمة .يتم الدخول إليها عن طريق الانتقاء بمسابقات وطنية تخضع لشروط دقيقة حددتها الدولة الجزائرية بمرسوم تنفيذي ، 02-140،المؤرخ في 2002/04/16، و المتمم رقم 92-44، المتضمن شروط الالتحاق»[37]

القسم الثاني: المؤسسات الجامعية الإسلامية:

تنشأ في شكل جامعات إسلامية متخصصة ، أو في كليات تحددها مراسيم تبينّ موقعها الجغرافي و عددها و تخصصاتها كـ(أصول الفقه – الشريعة و القانون – أصول الدين -) يدخلها الطالب المتحصل على شهادة الباكالوريا ، و تمنح شهادات تدرج : الليسانس ، و أخرى ماستر ماجستير دكتوراه) في التخصصات الموجودة. و تقدم تكوينا عاليا في الشريعة و القانون. عن طريق المحاضرات و التطبيقات و الندوات و الملتقيات الوطنية و العالمية . وهذه المؤسسات هي : جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية تستقبل الطلبة من ربوع الوطن و من الدول الأخرى .كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية. كلية الاقتصاد و العلوم الإسلامية بالخروبة العاصمة . كلية العلوم الاجتماعية و العلوم الإسلامية بباتنة. معهد أدرار للعلوم الإسلامية.من أبرز أهدافها تكوين الشباب تكوينا إسلاميا علميا تواكب النوازل و التطورات و يحقق متطلبات أمته و يتصدى لكل أنواع التيارات الهدامة المشوشة و الأفكار الخبيثة كالغلو و التكفير و العنف الديني ، و التمييع الديني باسم التساهل و التجارة في الفتوى.

ي – المركز الثقافي الاسلامي:

تعتبر المراكز الثقافية الإسلامية ، مؤسسة دينية رسمية، تنشط تحت غطاء وزارة التعليم الشؤون الدينية، تأسست بمرسوم تنفيذي المادة 02، 72-07، في 1971/03/21» و هي مؤسسة إدارية ذات طابع عمومي، تتمتع بالشخصية المعنوية و الاستقلال المالي،تقع تحت وصاية وزير الشؤون الدينية تتكفل بترقية الثقافة الإسلامية.»[38] تقوم بعقد الملتقيات المتعلقة بالفكر و التراث الإسلامي. تبادل الخبرات و المعلومات

[36]. الجريدة الرسمية، 82 ، 1994/12/10
[37]. الجريدة الرسمية العدد28، 2000/04/21
[38]. الجريدة الرسمية، العدد12، مرسوم تنفيذي ، 72-7، المؤرخ 1972/03/21

مع المؤسسات العلمية و الثقافية الوطنية و الدولية في الفكر الإسلامي. و لها فروع في ولايات كوهران و تلمسان و الشلف و الاغواط و باتنة و عنابة ...فتجميع الأفكار و تحليلها و معالجتها من مهمات هذه المراكز في أعلى مستوى إنتاج الأفكار و تجديدها.

لا – الزوايا و المرجعية في الجزائر

العودة إلى مصادر تاريخ الجزائري الديني و الثقافي تبيّن أن الجزائر عرفت هذه المؤسسات الدينية بقوة كبيرة منذ العهد الإسلامي الأول مع المرابطين و الموحدين ، و قامت بمهمات عديدة تعليمية و تكوينية و سياسية ، و قد جاء في دائرة المعارف الإسلامية « إنها مدرسة دينية و دار مجانية للضيافة و هي بهذين الوصفين تشبه الدير في العصور الوسطى»[39] يبدو هذا التعريف ضيقا لا يعبّر إلا على جزء من الزوايا ، بل هي مدارس قائمة بذاتها تلقن مختلف العلوم الدينية و الدنياوية ، و خير مثال على ذلك زاوية (الشيخ عبد الرحمن الاخضري البسكري البنطيوسى) في القرن الخامس عشر تدرس العلوم الشرعية و العلوم العقلية و العلوم التجريبية كالفلك و الهندسة و غيرها . أسسها علماء و زاهدون لتعليم الدين الصحيح من نصوصه الأصلية و نشر القيّم و الفضائل الإسلامية النقية السامية ، و أجيالها صنعوا مجد الأمة و رفعوا لواء التحدي أمام كل حقبة تقتضي التحديث و التجديد ، وقد لخّص لنا العلامة المؤرخ الجزائري (أبو القاسم سعد الله) مهمة الزوايا فقال : « فالزوايا التعليمية مفيدة يجب النظر إليها على أنها مشروع اجتماعي اشترك فيه كل السكان، و افتخروا به و ساهموا في تمويله و السهر عليه ووزعوا الأدوار و هناك دور للجماعة و دور لأهل القرية و دور للمرابط، و دور للمعلم و دور للأسرة...إنه مشروع حضاري وقد شهدوا عليه الباحثون الأجانب»[40] في الفتوى و القضاء و الإجابات عن الأسئلة الشرعية فضلا عن الفصل في النزاعات . و قد أحصت وزارة الشؤون الدينية اكثر من 763زاوية أكبرها الزاوية البلقائدية بتقصرايين بالعاصمة التي تشّنها رئيس الجمهورية (عبد العزيز بوتفليقة) و كان الحدث ان افتتح الطبعة13 للدروس المحمدية العالمية يوم 2018/05/24 ، و تم القاء حوالي 21محاضرة بحضور علماء كبار يشهد لهم المسلمون بالعلم و التقوى و السماحة ودامت إلى غاية 2018/06/01 .[41] ، بل صارت الزوايا اليوم مؤسسات قوية يعوّل عليها في تعليم الإسلام الحقيقي الذي يخلو من الغلو و التكفير و نفي الآخر ، اسلام يقف في وجه التيارات المتطرفة التي تتغذى على العنف و صناعة الإرهاب، بل نشاطها زاد من تجفيف منابع الإرهاب بالدعوة إلى الوسطية و الاعتدال و أسهم في استقرار نسبي في الجزائر.

الآليات الفكرية و دورها من صون المرجعية إلى مجابهة السوق :

لا شكّ في أنّ من أبرز ما يميّز دين الإسلام هو التسامح و السلام ، و الدعوة إلى إصلاح ذات البين ، و نجد النصوص المقدّسة تثمن هذا المسعى في المعاملات قبل العبادات . فإذا نظرنا إلى المؤسسات الدينية في الجزائر نجد أنّها مبثوثة بكثرة ، حاضرة دستوريا و اجتماعيا. لكن الذي يستدعي التساؤل : هو كيف نخر مرض الإرهاب و التعصب و نشر أفكار التكفير و الطائفية فوق أرض هذه المرجعية الدينية و الوطنية ؟ وما هي الآليات الفكرية التي اعتمدتها الجزائر لصدّ هذه الآفات لتحقيق الأمن الفكري و غلق سوق الفتوى أمام تجار الأزمات و محاربة الغلو و فكر التطرف؟

إنّ الفكر التكفيري الطائفي في الجزائر استغلّ فراغ الساحة المؤسساتية الدينية و الظروف الاجتماعية و الاقتصادية ، كما أثّر على البنية الفوقية للمجتمع الجزائري ، و منه وجد سهولة في التأثير بسب الجدل بين الديني و السياسي ، الجدل و النزاع الجزافي الذي ترك فراغا للعلمانية المتطرفة و الوهابية المزيّفة و أعطى للرافضة و للشيعة فرصا للتناسل و الانتشار كالفطريات الضارة التي لم تجد من يوقفها و يسحب البساط من تحت أرجلها. فكل هذا سببه التغافل عن المؤسسات الدينية وعدم الاستثمار فيها ، بقي الخطاب الديني متأخرا غير قادر على احتواء ما يجرى في الجزائر إبّان التسعينيات مثلا. وزاد الوضع تعكّرا عندما ظهر ما يسمى بالإسلام السياسي ، كآليات للتمزيق والتشرذم ، أنتج إسلاميين كفروا بالديمقراطية و الحوار ،استوردوا أفكارهم من تيارات المشرق ، و إسلاميين حبسوا الخطاب الديني في المسجد و قيّدوه بعادات و أساليب و مناهج عتيقة تنوّم الناس أو تنفّرهم . فمن تشخيص الخطر جاءت الآليات لتعزيز المرجعية و نشر الكساد في السوق.

---

[39] دائرة المعارف الاسلامية، ط9، دار المعارف لبنان، ص17.

[40] أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص132.

[41] http://www.radioalgerie.dz/news/ar/article/20180524/142341.html, retrieved 12.09.2019.

أ – التأصيل للفكر الديني المرجعي :

الأزمة الدموية الخطيرة في الجزائر حركت قريحة المفكرين و العلماء ، و جمعتهم على حل موحد يقرّ بحقيقة تجذّر الدين في الحياة و في الفكر . لإنتاج ثقافة دينية صحيحة متينة هي بدورها تشدّ السلوك العام شداً، و إخراج المخاطب إلى المجتمع حتى تتجدد الأفكار و تُختبر الأحكام . لهذا اتجهت الجزائر منحى تكثيف عقد الملتقيات و المؤتمرات الوطنية و الدولية لصناعة فضاء يجمع كل الأفكار و الجماعات. بالتركيز على المراحل الكبرى للخطاب الديني في الجزائر» [42]و تحديد معوقاته . فكان انعقاد مؤتمر (إسحاق الشاطبي 790 هج) حول الوسطية في الغرب الإسلامي و أثرها في نشر الإسلام في أروبا و إفريقيا، بجامعة الوادي 2017/12/04، حيث استقر موقف المؤتمرين على أن « الوسطية مقوما من مقومات المجتمع المغاربي،يتجلى ذلك في المذهب المالكي و الأخوة المجتمعة على الانفتاح على الثقافات الأخرى .»[43] والتوجه نحو المقاصد بالضبط في تقديري لمعالجة مشكلة الفرق بين الفتوى و الحكم الشرعي عند كثير من الناس، و تأكيد دور الظروف و المستجدات في تغيير الأحكام الشرعية ، و هذا لتأسيس النظرة الجديدة للمجتمع الإسلامي في ظل العلم و العولمة و الصراعات المفتعلة و حروب بالوكالات التي طبقت على دول الشرق الأوسط. فتشكيل الوعي مرتبط بالعظ على المرجعية الدينية التي لم تخدشها الأيادي المفسدة.

و غير بعيد عن هذه الأحداث الفكرية و العلمية ، تمّ عقد مؤتمر المذهب المالكي إذ وصل إلى الطبعة الرابعة عشر في مدينة عين الدفلى أيام 10-11-12-أفريل 2018، و حضره كبار علماء العالم و ركزوا فيه على دور علماء الجزائر في نشر الشريعة السمحاء و الدين الإسلامي النقي الخالي من التعصب و الغلو ، و كان آخرها موسوم ب(الاتجاه المقاصدي في المذهب المالكي) أين تمّ التوصّل إلى جملة من النتائج لخصوها في : مراعاة مقاصد الشريعة الإسلامية في الخطاب الدعوي والإعلامي، وتيسيره لعموم المواطنين، بما يسهم في خدمة الشعوب وتنميتها الشاملة، ويدرأ عنها المفاسد والفتن. و توظيف خصوبة المذهب المالكي و ثرائه المقاصدي في الاستجابة لمختلف التحديات المعاصرة . توظيف الفكر المقاصدي في ترقية القيم و العلاقات الإنسانية و تعزيز الأمن و السلم الدوليين. «[44] و كان لهذه الطبعات دعوة إلى دسترة المذهب المالكي في الجزائر . و كان لوقع المؤتمر صدى إعلامي كبير ساهم في ترقية الفتوى و إدراك مخاطر الإعلام الديني الفوضوي . و تحقيق الأمن الفكري للمسلم الجزائري ، و تحصينه.

هذا ، و من جانب آخر اتجهت المدارس الصوفية التي تنضوي تحت لواء الجنيدية إلى إعداد (الدروس المحمدية) في مقر الزاوية بوهران 12طبعة ، و في المقرّ الجديد بتقصرايين – الجزائر العاصمة في طبعته 13 ، التي التقى فيها علماء كبار من أرجاء العالم و كان موضوع الطبعة الأخيرة موسوما : (مصادر التشريع الاسلامي) « [45]و هذا الحدث المؤسساتي الديني هو الآخر كان له تأثير كبير في نفوس المسلمين الجزائريين ، إذ زادهم الاجتهاد الصوفي الفقهي من مدى معرفة الإسلام الصحيح ، و مكنهم من إدراك المؤمرات المحاكة ضد الشعب الموحِّد، و تمّ استثمار جانب من المحاضرات القيمة في المجال الإعلامي ، لتبيان أن الاتجاه الصوفي في الجزائر يعمل بالمنهج السني الصحيح.

و لا يخفى عن كل جزائري أصيل أن المرجعية الدينية الجزائرية في الدولة المعاصرة تولتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست بعد حركة دعوية و إصلاحية كبيرة قام بها نخبة من العلماء الجزائريين من مواقع مختلفة ، كالجرائد و المنتديات الثقافية و مدارس التعليم العربي الحرّ .فهذه المؤسسة الهامة جاءت لتجمع الروافد في تنظيم محكم يلمّ الشمل و يوحد الرأي ، و يرفع اللثام عن لبس الاحتلال الخطير . و الأبعد من ذلك ، جاءت الجمعية لتحوّل النشاطات الفردية الاصلاحية إلى مشروع وطني يتضمّن خارطة طريق لإعادة بناء المجتمع الجزائري المعاصر على أسس متينة صحيحة دعائمها (الجزائر وطننا ، و اللغة العربية لغتنا ، و الإسلام ديننا).

[42]. عبد العزيز خواجه، الخطاب الديني و أزمة المرجعيات في الجزائر، مجلة الواحات للبحوث و الدراسات، العدد3،2008، ص1 انظر:www.univ-ghardaia.dz/index.php/dz/component/content/article?id=130

[43]. حميد مسرار، الفكر التربوي عند الامام الشاطبي و دوره في تعزيز الوسطية، مؤتمر دولي حول الوسطية في الغرب الاسلامي،ص541

[44]. البيان الختامي للدورة الرابعة عشر للملتقى الدولي للمذهب المالكي،يوم 2018/04/12، انظر موقع الشؤون الدينية الجزائرية http://www.marw.dz/index.php/2015-03-24-13-16-07.htm

[45] http://www.marw.dz/index, retrieved 12.09.2019.

لقد كان ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 05 ماي 1931 بنادي الترقي بالجزائر العاصمة ، و اختيار هذا التاريخ ربّما جاء كردّ فعل استراتيجي على فرنسا المحتلة لاحتفالها بمرور مائة سنة من الاحتلال . تمّ انتخاب رئيسها (عبد الحميد بن باديس) المولود في الرابع من شهر ديسمبر سنة 1889في مدينة قسنطينة بالشرق الجزائري» [46]و توفي في 16افريل 1940 .و لأسباب ذكرناها في مداخلة مؤتمر (وارسو2017) [47]، حوصرت و جمّدت – و هذ من أخطاء النظام السياسي الجزائري – الى غاية صدور دستور 1989 الذي عزّز التعددية و أعاد للجمعية مكانتها لاحتواء ما كان يجري من صراعات في 1991 و ترأسها (الشيخ أحمد حماني) و التفّ حولها العلماء الأكفاء التي مازالت الى يومنا هذا برئاسة (الدكتور عبد الرزاق قسوم) . و بعد اقل من شهر تمّ تأسيس (الجمعية الوطنية للزوايا) . و الغرض من تحديث هذه المؤسسات هو درأ حركات التمرّد التي أعلنها دعاة جدد تغذوا من نوافذ اعلامية خطيرة . فالعودة إلى منهج جمعية العلماء هي آلية متينة لتجنب الإنسان المعدّل في الفكر الجزائري . وهذا النشاط الجمعوي المفعم بالفكر الوسطي المتسامح كان له تأثير كبير في إعادة المرجعية الدينية للجزائريين و تأمين عقول الشباب ، و إعادة المؤسسة الدينية إلى أصلها المتمثّل في اعداد العابدين المناضلين و ليس المقاتلين المتطرفين. لأن التشرذم لا مكانة له في المرجعية الدينية الجزائرية. و ما يصنعه الإعلام الديني المدمّر على منابره قد يؤدي إلى تدمير دولة بكاملها . فمن هذه الوكعات انتقل حكماء الجزائر إلى ضرورة تأهيل المساجد و تحصين المنابر ، للحد من الطوائف المشوشة المدمّرة . لأن « الوسطية صورة من صور نجاح العقيدة الصحيحة في تقويم السلوك « [48]و عندما تترجم إلى استجابات و أعمال فتلك هي العبادة التي تستقرّ في النفس و في القلب و هذا ما يدلّ عليه قوله تعالى : « و الذين آمنوا و عملوا الصالحات لنكفّرنّ عنهم سيئاتهم و لنجزينّهم بأحسن ما كانوا يعملون» (سورة العنكبوت آية 07)

ب – تأهيل قطاع الشؤون الدينية و الأوقاف:

عملت الدولة الجزائرية على تأهيل المساجد و تدارك الركود الذي تميزت به أماكن العبادة التي تجمع المسلمين في اماكن معينة و في ازمنة مضبوطة بإعادة النظر في طرق تسييرها و رسم الأهداف ، باعتبار أن المساجد مؤسسة تشرف عليها الدولة ؛ فإنّه من الواجب أن تعبأ فكريا و روحيا المسلمين لمجابهة المشاكل و الصعاب.و منارة متجددة للتربية الاسلامية . « و قد دعت وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف إلى ضرورة تسخير الخطاب المسجدي للحفاظ على الذاكرة الوطنية ، و حماية الوحدة الوطنية و غرس حب الوطن في نفوس الناشئة» [49]لهذه الأهمية العاجلة ، تمّ اعداد الرسالة المسجدية بالتركيز على علماء الجزائر و اجتهاداتهم و مناهجهم الأصولية بحجة التبيئة الفقهية ، و حتى تؤتي الخطب المسجدية أكلها ، بات من الضروري توحيد الأهداف و التركيز على غرس مبادئ المواطنة . و هذا الذي أصبح كآلية فكرية تعمل بانتظام في أكثر من 15 000مسجد على مستوى التراب الوطني[50].فما اختلف فيه المسلمون ، و ما غمّ عليهم من أمور الدنيا و الدين ، سيجده المسلم الجزائري في المسجد و ليس في المواقع الاليكترونية ، و الفضاء الازرق ، التي تبني أحكاما على العرقية و و العروبة و الحزبية . لكن بماذا تمّ تنفيذ هذا المشروع الديني المؤسساتي؟ ، لا شكّ في أن لتنظيم سلك الأئمة و الخطباء و انتقائهم وفق شروط موضوعية سهّل على الوزارة الوصية عملية الارتقاء بالإمام و تحقيق طابع التواصل الإيجابي بين الخطيب و المتلقي . و تحسين مستوى الخطاب . على مستوى المعاهد المتخصصة التي تجاوز عددها السبعة ، فضلا عن الجامعة الاسلامية بقسنطينة و كليات الشريعة في جامعات الوطن.

---

[46] تركي رابح ، عبد الحميد بن باديس رائد النهضة و الاصلاح الاسلامي و التربية في الجزائر، ط٥، وزارة المجاهدين،2001، ص 153

[47] M. Fatahine, *The Role of Moderation and Tolerance in Achieving Peace and Deontology of Difference with the other in a discourse by the Association of Algerian Muslim Ulama Scholars*, The 3rd International Symposium "Politics and society in the Islamic world", University of Warsaw, 20–21.10.2017.

[48] رزق الطويل ، العقيدة في الاسلام منهج الحياة، إصدارات المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية مصر – 1981، ص 119

[49] بودالیا توایتیة،المرجعية الدينية الوطنية للخطاب المسجدي، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية و التاريخية، العدد٢، جوان 2012، ص 77

[50] https://www.albayan.ae/sports/2006-10-17-1.954508, retrieved 12.09.2019.

إذن، هذه العملية التنظيمية و التكوينية شكّلت الأفكار النفيسة لدرأ ما أفسده الإعلام المضلل ، و أرجع الخطاب المسجدي إلى أصوله الأولى كما عرفناه عند علماء الجزائر، أين نجد التسامح، السلم، نبذ التطرف ، و احترام الآخر .

ج – فكرة ترقية الخطاب الديني بإدراج موضوع الوقاية من التطرف و العنف في خطب الأئمة ، بأسلوب بلاغي محكم ، و بحجاج مقنع نابع من الأصول و المرجعية الدينية و الوطنية الجزائرية. « بإصدار دليل وطني لخطب الجمعة للخروج من الارتجال لقول الإمام ما يشاء «[51] وهذا الذي يحد من الانزلاقات ، و يدّ الثغرات التي تلج منها الأفكار الدخيلة المناقضة للمرجعية الجزائرية الاسلامية.

د- إنشاء المرصد الوطني لمكافحة التطرف:[52] مشروع يُحصِن المرجعية الدينية في الجزائر و حمايتها من التديّن الإفتراضي الذي يشتغل عليه الفكر الداعشي .و تدمير فكر الشباب و تخريب فطرته السليمة . المرصد يسهر عليه خبراء و علماء قادرين على إبراز الصورة الحقيقية للإسلام انطلاقا من النصوص الصريحة الصحيحة. و نجاح هذه الهيئة لزم عنها طلب الكثير من الدول الغربية اعتماد أئمة جزائريين لتأطير المساجد في أمريكا و إيطاليا و ألمانيا و بلجيكا ...

و – فكرة إطلاق رابطة علماء دول الساحل من أجل إسلام معتدل[53]:

و في هذا تكريس لتاريخ دول الساحل و أصالة الإسلام فيها ، بالعودة إلى فضاء التسامح و الزهد الذي عرفته شعوب إفريقيا و منهج الدعوة و التبليغ الذي انتهجه التجار المتصوفون الذي نشروا الإسلام السمح دون أن تسيل قطرة دم . إذ اعتمدوا المالكية كمذهب فقهي و الأشعرية كمنهج عقيدة و الجنيدية كسلوك تربوي روحي . وصوا به إلى أدغال إفريقيا ، جنوب الصحراء. ففكرة رابطة علماء الساحل فوتت الفرص على التيار الداعشي ، و أفتت بمكافحة الإرهاب بلا هوادة حتى تفيئ الفرق إلى أمر الله و في هذا حماية للأنفس و تحصينا للشريعة النقية.

ي- فكرة المصالحة الوطنية المبنية على قانون السلم و الرحمة و الوئام المدني.»[54]المشروع الذي أحقن الدماء في الجزائر إنطلاقا من دعوة العودة إلى المرجعية الحقيقية الذي احتفلت الجزائر بعيدها 13شهر سبتمبر 2018 ، و أصبح مرجعا للدول ، و مثال سبق للمشاكل السياسية و الدينية .

استنتاج و استشراف:

نخلص ممّا سبق ذكره و تحليله أنّ الحملة الشرسة التي عانت الجزائر ويلاتها في نهاية القرن20و بداية الألفية الثالثة ترجع في أصلها إلى ابتعاد الخطاب الديني في الجزائر عن المرجعية الدينية بسبب خلافات إيديولوجية بين السلطة و جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الحاملين للواء الأصالة و الثقافية العربية الإسلامية الحقيقية. و لكن ، هذا الخطأ الاستراتيجي صار قنبلة، انفجرت في عقد التسعينيات بسبب الفراغ الذي عرفته ساحة المرجعية الدينية من بداية الاستقلال إلى غاية التسعينيات.

تزامن ضعف المرجعية الدينية بظهور العولمة الجديدة و اختلاق الاعلام الديني الذي ناب عن الأئمة و العلماء وسهّل ظهور السوق الدينية التي صارت توجه برصة الشعوب ، في أبسط صوره عن طريق فوضى الافتاء ، و سهولة إتلاف المرجعيات التي تشكّل الأرضية التي يقف عليها المجتمع.

التشويش عن طريق الإعلام الديني سببه ارتقاء خطباء بضاعتهم ضحلة و أغراضهم غير بريئة ، فشككوا في الأصول و ضربوا المجمع الإسلامي ببعضه لاختلاق الفتنة كسلعة رائجة تؤسس لحروب بالوكالات.

أدركت الجزائر هذا الخطر، فسارعت لاقتفاء أثر الحكمة فأعادت النظر في جديد الخطاب الديني و الاحتكام إلى المرجعية الدينية الحقيقية التي حافظ عليها علماء الجزائر عبر التاريخ الإسلامي الطويل. و اختارت أن يبدأ علاج محاربة التطرف و الغلو في الدين و سد أبواب التكفير بالاستثمار في الخطاب الديني الصحيح و محاربة الأفكار الدخيلة الهدامة التي تغذي المذهبية و الطائفية...

[51] https://www.eldjazaironline.net/Accueil, retrieved 12.09.2019.

[52] https://www.vitaminedz.com/Articles_18300_3031221_0_1.html, retrieved 13.09.2019.

[53] https://www.assakina.com/center/parties/19434.html, retrieved 13.09.2019.

[54] M. Fatahine, *Political Discourse in the Muslim World and the Reality of the Assets and the Effects of Globalization Algeria Model*, [in:] *Politic and Society in the Islamic World*, eds I. Kończak, M. Lewicka, M. Widy-Behiesse, Lodz 2016, p. 98.

لا يمكن الحديث عن خطاب ديني في غياب المرجعية الدينية و الوطنية في الجزائر . لهذا الاهتمام بالمعرفة الدينية دون العلماء و دون إعادة بعث المرجعية المؤسساتية الدينية يعتبر مضيعة للوقت و فقدان للطريق . و منه صار الحرص على ترسيم المؤسسات الدينية و إعادة هيكلتها و تحديث مناهجها كان حتمية لا مفرّ منها، مكّن الدولة الجزائرية من تفكيك قنبلة التطرف و العنف الجنوني ، و غلق الساحة التي كانت أرضية خصبة لانطلاق الأفكار الهدامة . و تجفيف الكثير من منابع الإرهاب الطائفي و إحلال الكساد في سوقه بتطعيم المجتمع و تقوية مؤسساته. نتيجة الحرص على توحيد المرجعية الدينية ، و دَسَتَرتها ديمقراطيا.

و من جملة الإجراءات الاستراتيجة التي تعوّل عليها في ترقية المرجعية الفكرية و المؤسساتية نجد:

- إنشاء المجمع الفقهي الذي يظم علماء الجزائر
- توسيع دائرة المجالس العلمية في المؤسسات الدينية و تدعيمها بخبراء في كل التخصصات
- إعادة تأهيل الأئمة و الخطباء و إقحامهم في عالم التكنولوجيا
- تكريس المرصد الوطني لمكافحة التطرف و الغلو و تجريم التكفير
- تكثيف المؤتمرات و الملتقيات العلمية العالية المستوى للنظر في المشكلات المطروحة في المجتمع.

الملخص :

عرف العالم العربي في نهاية القرن العشرين و بداية الألفية الثالثة موجة اضطرابات من العنف المركّب ، عصفت بجغرافيته و نظمه السياسية تحت آليات العنف و التطرف و الارهاب . و الجزائر واحدة من هذه الأقطار التي تجرعت مرارة الارهاب و التطرف بجميع أشكاله ، و مازالت تجابه بعضا من بقاياه في شكل مذهبي و أحيانا طائفي منبعث من سوق دينية دخيلة قصد الوشاية و زرع الشكوك و ضرب الرموز و تسجيل الحضور.

و في ظل هذه الوشايات التي باتت تهدد الاستقرار بتأخير الحوار المؤسس ،و زرع الشكوك و اللعب على ورقة الأقليات . عززت الجزائر خطابها الديني بآليات فكرية علمية من شأنه استعادة المرجعية الدينية و الوطنية لغرسه أكثر و تحيينه بعيدا عن التعصّب و التضخّم . لهذا تجدني في هذه الورقة البحثية أستشكل عن آليات تعرية و رفع اللثام عن ما تدفع به سوق الأزمات في ساحات العالم العربي ؟ تحت غطاء ظاهرة التحولات الدينية و اتساع قاعدة اتباعها . لهذا بات من الواجب تبيان تهافت حجاج هذه التحولات الدينية في الساحات التي تغذت على ألأصول المرجعية الحقيقية كالخطاب المسجدي في الجزائر و تجلياته في المنظومات الاجتماعية بصورة تحديثية جديدة يسدّ الذرائع ، و يفتح أبواب التعايش و التسامح و الحرية.